الملك وزمر العملة يدنون له بلاطه والحدائق والحقول والغدران والاسماك في الماء والطيور ترفرف على وكناتها أو تتطاير من شجرة الى أخرى . وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم لان أهل الصناعة ما عرفوا تصويرهامن الامام .ولكنك تقرأ في سحناتهم الحياة والشرف . وتظهر الحيوانات في الاحايين وخصوصاً في الرسوم البارزة في الصيد وفي العادة أن تنقل نقلاحقيقياً مدهشاً .وكان الاشوريون يتأملون الطبيعة ويرسمونها أصح رسم وبهذا تعرف قيمة صنائعهم حتى ان اليونان اقتدوا بمذهبهم في الصنائع بان قلدوا النقوش الاشورية ففاقوا مقلديهم وليس في الامم حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالاشوريين

حسنات القرن الماضي وسيئاته

معربة عن الفرنسوية

من المعلوم ان حب البذخ قد وجد في كل عصر من عصور العالم وتواريخ الامم القديمة طافحة بالامثلة الكثيرة من ذلك ولكنه كان أبداً سبب الشقاء العام والخاص وتأثيره في هذه القرون الحديثة أدهى وأمر . فقد كان البذخ في القرون السالفة من شأن طبقات الاشراف الكبراء أما في القرن التاسع عشر فاصاب الطبقة الوسطى من الناس تلك الطبقة التي نالت ما نالت بفضل ما خولت من الامتيازات . وهذه الطبقة على كثرة عددها من أشد الطبقات قرباً من الطبقة السافلة وأكثرها بها اختلاطا ولذلك أصاب هذه أيضاً من ذاك المرض شدة ، وبرحت بها تباريح التفخل والتبرج . ومن الاسف ان آفة التظاهر باليسار ما زالت تتفاقم شرها ويعظم ضررها من حين الى آخر وهي من الجراحات الاجتماعية التي هاجت الطبقات الميسورة

والطبقات المعسورة معا. فقد اعتدنا ان تتخذ من الظل نوراً ومن الظواهر حقائق حتى تضطر الحقيقة ان تكتسي بين اظهرنا في الاحايين رداء أسوداً من الكذب للوصول الى الغاية تنشدها

وما دام العلم لم يعم سواد الشعوب وطبقة العملة لا تهديها المعارف الى وجه مصالحها الحقيقية فالميدان رحب لاهل المطامع ممن يستخدمون البذخ آلة لاضلال الرأي العام فيعمدون الى طرق غريبة في الكسب والانتفاع ومنها أشغال البورصة والمضاربات . وسرها قائم بالتأثير في أفكار الرجال بايجاد الثقة وعدمها في بعض الاحوال على حسب أغراضهم وهم يسيئون استعمال الثقة العامة باشاعات كاذبة يلفقونها ليغتنوا فيكونوا عالة على ما اقتصده الوف من البيوت المسكينة وأنت عارف بنتائج أشغال البورصة في الآداب العامة فان زيادة المالية على هذا النحو تضعف الاحساس وتصد الذكاء عن سننه وغايته الحقيقية وتقتل النشاط على العمل . ويسود أعظم نجاح باهر في الصناعات العادية في عيون أصحابها في جانب الوعود الخلابة التي يعدهم بها القائمون على هذه التجارة . ثم ان امثال هذه الثروات السريعة الحصول تنبه طمع من كانوا يقنعون من قبل بثمرات اعمالهم أو أملاكهم فيأخذهم دوار الريح فيتدهورون في هذه المضاربة المخطرة فيؤدي ذلك الى خراب ثروات عديدة وتجلب المصائب على أسرات كثيرة . وما ننس لا ننس الازمات المالية التي وقعت منذ ثلاثين سنة في فينا وبرلين وباريز ولندرا وحدث عنها أفلاس عظيم في الطبقات العالية والوسطى مما يثبت نتائج البورصة السيئة وما هي الا بنت البذخ والزهو الجنوني في عصرنا

ولقد حدت الحال بالامم ان ترقي درجة التعليم العام بداعي الجهاد

المستمر العظيم في معترك الحياة الحاضرة فأخذوا يملأون رؤوس التلامذة الذين يتأهلون للصناعات العلمية والادبية بأنواع المعارف فتضيق عن استيعابها ولا تقوى أجسادهم على تحمل ما ينهال عليها ويصرف من دقائقها فيصابون بأمراض طبيعية وعقلية وتضعف تراكيبهم عن تتميم وظائفها وتضطرب تغذيتهم والمساعدات على تراكيبهم النامية

والامم التي تزعم انها في مقدمة الحضارة والقيمة على أسبابها هي التي تجتهد كل الجهاد في هذا المعنى فتنفق النفقات الطائلة لتزيد في ترقية الشبان وإنارة عقولهم وزيادة عدد المدارس وتحسين مواد التعليم العالي والوسط والابتدائي . ولا يفوتنا النظر زيادة على ما ذكر من القوانين الفيسيولوجية (المختصة بوظائف الاعضاء) ان نفوذ القوى العقلية متوقف على كمية الاكسيجين التي يحملها الدم الى الدماغ وعلى الهواء الصافي الذي توفرت فيه مادة الاكسيجين يشاركهما على تحسين مجرى الرئة وهو السبب الضروري لسلامة الوظائف العقلية . فاذا بطل هذا الشرط وأضيف اليه تهييج القوى العصبية الناتج من شغل عقلي طويل وخصوصاً في بعض التراكيب والاعمار يضعف مجرى الدم ويؤدي بالتدريج الى الفقر الدموي الدماغي والى إنهاك القوة الفكرية ويبدأ ذلك بضعف الذاكرة وعدم الامكان في تحديق النظر في الموضوعات المهمة والشبان الذين يتعاطون العلم يصابون غالباً بسوس الاسنان وقد بثت لاحد أطباء برلين من احصاء خمس سنين ان ثمانين في المئة ممن تقدموا ليكونوا متطوعين في الجيش مدة سنة لم يكونوا صالحين للخدمة

والفتيات اللائي ينصرفن الى الاشغال العقلية يصبن أيضاً بما يصاب به الفتيان من ضعف الدم والامراض العصبية المختلفة وخصوصاً في سن

البلوغ لان حالة المجتمع الحديث أصبحت تقضي على الفتيات ان ينصرفن جملة الى الكد وإنهاك القوى للتغلب على رنق الحياة ومنهن من لا يجتهدن على هذا النحو الا مجاراة لرغائب والداتهن أو عملا بما يقتضيه التقليد . واذا كان معظمهن عائشات غالبا في المحال المزدحمة ولا تسمح لهن أحوالهن المالية بالعيش أبداً في احياء معرضة للهواء وبيوت توفرت فيها شروط الصحة على يابها فقد أسفر ذلك عن انقطاع الحواس التنفسية عن بلوغ حدها الاعلى من الانبعاث لقلة التمرين الوظائفي مما يؤدي الى بشاعة كثيرة ويفسد الاوضاع الجسدية ويفضي الى الحسر (ضعف البصر) وانحراف العمود الفقري الشائعين بين الفتيان والفتيات في خلال سن البلوغ

وقصارى القول فقد أحدث القرن التاسع عشر تأثيراً في اصلاح الخيرات المادية والادبية والعقلية في جميع طبقات المجتمع عامة وفي طبقات العملة خاصة فقلت قيمة ما احدث وكلفت فوائده أهل الاجيال الحاضرة والمستقبلة كثيراً اذ لم يترك في الوجود غير كثير من المسائل الاجتماعية دون ان يحلها . وسيبقى الجهاد أبداً قائماً على ساق وقدم بين نصراء الطريقة القديمة والمجاهدين لتحقيق نياتهم في الارتقاء الحديث . بين رأس المال والعمل . بين حقوق المجموع وحقوق الافراد .

ومن الاسف انا لانزال في دور التجارب وإنا لنتطال الى بلوغ عقل الانسان مرتبة الكمال وهذا لايتأتى إلا بالانفاق من سائر التركيب النامي الذي يضعف فيعمل على الدماغ فتختلف الاضطرابات باختلاف القوى العصبية والاشغال العقلية والجنس والسن . وافراط الشبان في الاشغال العقلية مضافاً الى الاستكثار من ضروب الشهوات في سن الوجولية هو

الداعي عند بعضهم الى استنزاف مادة القوى ونفوذها العقلي ويؤثر في بعضهم من الجهاد في الحياة ومن مختلف ضروب الاطماع في نيل المراتب والمناصب الاجتماعية ويكون سببها عند بعضهم بذل قوى الافراد الطبيعية والادبية باضعاف التركيب النامي بالاضطرابات والهيجان من كل ضرب .

والحق يقال ان الانسان قد تعلم بفضل ارتقاء الحضارة الحديثة طرق الوقاية من كثير من الامراض بالعمل بالقوانين الفيسيولوجية أي بواسطة الاسباب الصحية في اعمال الحياة الخاصة والعامة . ولا يفوتنا ان تلك القواعد كانت في الازمان الغابرة مجهولة فكان الضعفاء عرضة للهلاك بداعي قلة أسباب مدافعة العناصر العادية التي تتربص بهم الدوائر على حين فاز الاقوياء بما ارادوا من المنعة والوقاية وحيوا حياة طيبة عمروا فيها الى ان تمتعوا باولاد وبنين . هذا وقد توفرت اليوم دور الصحة للفقراء ومستشفيات السل والمصاح والملاجئ والبيمارستانات لليتامى والعميان والصم البكم والمعتوهين والبله . وبالجملة فان المجتمع يؤوي في حجره الفقراء والمرضى والبله والضعفاء وكل من أعوزتهم القوة وخانتهم أسباب الجهاد . وقد صار من لم يعيشوا من قبل الا أياماً في حالة حسنة يعيشون معها ويكبرون ويتبسطون في هذه البيئة الصناعية كالنبات يعيش في بيت من الزجاج بمأمن من الاحداث الجوية وربما ولدوا أولاداً ضعافاً مثلهم وإن كانوا على جانب من الذكاء ولكنهم حرموا من الحدة الطبيعية واحتاجوا للوسائط الصناعية لينجحوا وقد ورثوا الاجيال اللاحقة تلك المفسدات العضوية التي لا تؤهلهم لبلوغ الاجل الاوسط من الحياة البشرية أو تعدهم للامراض المهلكة التي تشتد وطأتها على الجنس الانساني وخصوصاً في مراكز السكان الكبرى .

وغير خاف ان نماء التجارة والصناعة في النصف الاخير من هذا القرن لم ينشأ عنه فساد هواء المدن بازدحام الناس في انحائها وبما ينبعث من قاذوراتهم وعفنهم بل قد نتج منه شقاء الطبقة النازلة وانتشار الفجور والفساد والجرائم . وما من أحد يجهل ان السوقه في المدن الكبرى يحتالون أبداً للانتفاع من المفاسد البشرية واماكن اللهو مثل محال القهوة والمجتمعات ودور اللعب والحانات والمواخير حيث ينفق بعضهم في اللعب ما اقتصده آخرون ينفقونه في معاقرة المشروبات الروحية وفريق منهم يأتون في ناديهم المنكر وهم لا يتناهون . وانت ترى بهذا ان حياة العيال المحبوبة آخذة بالضعف من حين الى آخر كما ان التعلق بالبؤرة (المسكن) الاهلية آخذ بالفتور والانحلال . ولم تحدث محال القهوة والمجتمعات العامة الا لضرورة اجتماعية ولتكون معهداً يختلف اليه التاجر والاديب في الاحايين وينتابه العامل في آونة عطلته . وقد استعيض عن الاخلاق والصلات البسيطة التي عهدت في الازمان السالفة بغيرها من الاخلاق والعادات ولكنها نكدة مخالفة للطبيعة واجدر بها ان تكون مكسوة بالطلاء اللامع من الظواهر من ان تكون لها حقيقة لا شائبة فيها .